الفصل الخامس

كتابة الرسائل

— ٢ —

من ابن طولون إلى الفاطميين

رأينا فيما سبق أن الرسائل كانت ضعيفة فى مصر ، ولم يؤثر منها بعد زمن عمرو إلا النادر ، الذى أفلت ، فلحق بما بقى من رسائل الشام والعراق . ولم يكن مركز مصر فى الدولة الإسلامية ليهيىء لها ظهور الكتاب فيها ، أو إقبالهم عليها بسبب تبعيتها لدار الخلافة ، وانصراف الكتاب وغيرهم من أهل الأدب إلى حاضرة الدولة ، حيث العطاء الجزيل ، والمناصب الرفيعة ، والشهرة الواسعة ، والحظ الباسم لمن سعدوا بقرب الخلفاء والوزراء .

وما كان لهؤلاء الكتاب — فى عهد العباسيين خاصة — أن يتركوا بغداد حاضرة الدنيا ، ومعين الخير ، وجنة النعيم ؛ والتى لم تكن توزن بها حاضرة أخرى فى الدولة ، ولا برجالها رجال فى نواحى المملكة ، وكانت دواوين الإنشاء فيها موئل كل مجيد من الكتاب ، ومدرسة كل طامح من الناشئين .

ديوان الإنشاء :

فلما حاول ابن طولون الاستقلال عن بغداد رأى أن يجعل استقلاله كاملا : فكون جيشاً ، وبنى حاضرة ، واستخدم كتاباً ، وأنشأ ديواناً للانشاء .

ويقول المؤرخون إنه كان أول ديوان للانشاء[١] بمصر . وروى صبح الأعشى[٢] أنه كان لديوان الإنشاء بالديار المصرية خمس حالات — يعنينا منها الأولى والثانية — .

الحالة الأولى : ما كان الأمر عليه من حين الفتح وإلى بداية الدولة الطولونية ، ونواب الخلفاء تتوالى عليها واحداً بعد واحد ، فلم يكن لهم عناية بديوان الإنشاء ولا صرف همة إليه ، للاقتصار على المكاتبات لأبواب الخلافة ، والنزر اليسير من الولايات ، ونحو ذلك ؛ ولذلك لم يصدر عنهم ما يدون فى الكتب ، ولا يتناقل بالألسنة .

ويقول أيضا عن هذه المدة التى سبقت ابن طولون[٣] : إنه لم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المدة صرف عناية ؛ تقاصراً عن التشبه بديوان الخلافة .

الحالة الثانية : ما كان الأمر عليه فى الدولة الطولونية من ابتداء ولاية أحمد ابن طولون واستفحال ملك الديار المصرية فى الإسلام ، وترتيب أمرها إلى انقراض الدولة الإخشيدية ، وفى خلال ذلك ترتب ديوان الإنشاء بها وانتظم أمر المكاتبات[٤] .

ويقول صبح الأعشى[٥] أيضاً إن ابن طولون أول من أخذ فى ترتيب الملك

---

(١) لعله كان فى ولاة مصر من تشبه بالخلافة فجعل لرسائله كتاباً ولكن ذلك كان نادراً : روى ابن النديم فى الفهرست ص ١١٣ أن جابر بن داود البلاذرى — جد المؤرخ — كان يكتب للخصيب بن عبد الحميد عامل الرشيد على مصر وممدوح أبى نواس . وفى خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٢٦ أنه كان للولاة كتاب ينشئون عنهم الرسائل إلى الخليفة وغيره .

(٢) جـ ١ ص ٩٥ (٣) جـ ١١ ص ٢٨

(٤) جـ ١ ص ٩٥ (٥) جـ ١١ ص ٢٩

وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية ؛ ولما شمخ سلطانه ، وارتفع بها شانه ، أخذ فى ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه فى المكاتبات والولايات .

فضل ابن طولون على الكتابة :

وكان لابن طولون فضل فى إقامة دعائم الكتابة لحاجته إليها فى حكم البلاد وكانت الضرورة تقضى فى أثناء ولايته الطويلة (٢٥٤ — ٢٧٠) أن يكون دائم المكاتبات ، لما كان يشغله من أمر الخلافة ، وأمر الثغور ، والبلاد التى كان يسيطر عليها ، وما كان يجد فى مصر من فتن وأحداث تستدعى الكاتب الماهر ذا الرأى السديد والقول النافذ . فاختار لكتابته قوماً عرفوا بالبلاغة كما عرف هو بالأدب وحسن التوجيه والإرشاد .

روى أنه أراد أن يكتب رسالة فاستدعى ابن عبدكان كاتبه وألقى إليه بالمعنى الذى يريده . قال ابن عبدكان فى حق هذه الرسالة : فوالله العظيم ما حضرنى لهذا الكتاب أحسن من معانى ألفاظه كلها ، فلم أتجاوزها . وأنفذ الكتاب واعمل به[1] .

وكان اختياره لابن عبدكان دليلا على حسن الاختيار ، قال صبح الأعشى فيه[2] : « فاستكتب ابن عبدكان فأقام منار ديوان الانشاء ورفع مقداره » .

وقد عرف عنه تدقيقه فى الرسائل التى تصدر عن ديوانه .

فلم يكن كتابه يختمون كتاباً ولا يحررون نسخة حتى يعرضوه عليه ، فإن استصابه أمضاه وإلا غيره .

---

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١١٠

(٢) ج ١١ ص ٢٩

ديوان التصفح :

وكان لما استكتب فى خرجته إلى الشام أبا الضحاك محبوب بن رجاء ، ولم يكن بالكامل ، إلا أنه كان حاضر الذهن حلو الألفاظ ، فعرض عليه يوماً كتاباً فلم يقل فيه شيئاً ، فأنفذه محبوب فسأل عنه أحمد بن طولون بعد أيام ، فقال له : قد أنفذته . فحرد عليه واغتاظ ، وقال له : ويلك ! حق الكتب أن تراجع فيها الأفكار ، وقد كان ينبغى أن تؤخر إنفاذه وتراجعنى فيه . فكانت كتبه بعد ذلك تؤخر لمراجعة النظر والتصفح بعد الإنشاء ، وجعل لها ديواناً سماه ديوان التصفح[١] .

وكان حريصاً على مراجعة الكتب والزيادة عليها بما يريد أن يُسِره عن كتابه . وحدث عنه ابن عبد كان فى ذلك قال : « كنا ننشئ الكتب إلى السلطان وغيره من أصحاب أعماله فيرد فى الأجوبة غير ما صدرت به الكتب إليهم ، فذكرت له ذلك لما كثر ، فضحك وقال : هذه أجوبة عن أشياء أضمنها أنا الكتب لا أطلعكم عليها[٢] » .

ومثل هذا الأديب المدقق يحمل كتابه على حسن الاختيار ، وتهذيب الكتابة والحرص فى التعبير ، وحمل النفس على الإجادة ، وسلامة التفكير ؛ لينالوا ثقته ويسلموا من أذاه .

تفضيله المصريين فى الكتابة :

وكان له رأى سديد فى تفضيل المصريين على العراقيين . فإنه كان — مع إيمانه بتفوق العراقيين فى الكتابة — يفضل استخدام كتاب مصريين : نقل عنه أنه

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١١٢
(٢) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١١٢

لما وجه بالواسطى إلى العراق واستكتب جعفر بن عبد الغفار ، اضطرب بما حمله من الأمر ، ولم يكمل له ، فقال له حمدان بن خاقان : الأمير أيده الله يحتاج إلى كاتب أوفى وزناً من هذا الكاتب ، فقال له : أنا أحتمله وأقنع به لأنه مصرى . فقال له حمدان ، وكأنه عجب من قناعته بكاتب مصرى لا يغنى غناء العراق : والأمير أيده الله يرى أن الكاتب المصرى أكتب من العراق وأنهض بما يتولاه ؟ قال له : اعلم أن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، فإنه يجمع بذلك أشياء تحمد عاقبتها ، منها أن عيال الكاتب وشمله وكل ما يملكه معه فى بلده ، ومنها أن جميع ما يكسبه فيه ، وإن كان ممن يرغب فى تجارة كانت تجارته فيه ، أو فى شراء عقار أو بناء كان فيه » . ثم يقول : والكاتب الغريب ليس كذلك لأنه يعتقد المستغلات فى البلد النائى عنى ، وكده عمارة بلده بتخريب بلدى ، وهو كذلك فى كل حال ، متطلع إلى بلده . . . فهذا الذى زهدنى فى كتاب العراق ، مع علمى بما فيهم من الصناعة وتقدمهم فى الكتابة » .

فقال له : قد أصاب الأمير الرأى وفقه الله[1] .

وأرى أنه كان يريد تدريب المصريين على خدمته ، والقيام بأمور دولته ، ليستغنى بهم عن العراق ورجاله الذين لا يرون له فضلا عليهم ، لأنه كان بالأمس واحدا منهم . وربما دعا ذلك أدباء البلاد إلى الثقة بأنفسهم ، والنهوض بأدبهم ، واستكمال ما ينقصهم ، ليرتقوا إلى المنزلة التى أراد أن يرفعهم إليها ، ويكونوا أهلا لمساواة كتاب العراق ، وشغل مراكزهم ، والحلول محلهم .

وترى كاتب الأمير أصبح رجل دولة ، يعتمد عليه فى المراسلات السياسية ويوكل إليه تدبير بعض شئون الدولة ، ويستشار قبل الإقدام على عظيمات الأمور .

وإليك القصة التالية :

كان ابن طولون يود أن يختطف الخليفة من بغداد ، وينقل كرسى الخلافة إلى

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١٠٦

مصر ليبعدها عن تأثير الموفق وسلطانه ، فحدث أحمدَ بن محمد الواسطى فى ذلك فقال له : ما تبلغ معرفتى وفهمى الكلام فى هذا الباب ، ولكن فى محبسك من إن أحضرته واستشرته أشار — لفهمه ورجحان عقله — عليك بالصواب . فقال : ومن هو هذا ؟ فأجابه : محمد بن اسماعيل بن عمار . فقال له : صدقت ؛ إنه لكذلك ، ولولا نفورى منه ، لخوفى من غوائله ودهائه ، لما كان بحيث هو ، وكان معى فى أجل حال ، فأحضرنيه . فأدخل عليه بهيئة السجن وملابسه ، وعليه قميص غليظ ، وقد اسود من طول دخان السراج . وشعره قد طال ، حتى سقط على وجهه لكثه فى المطبق ، فاستدناه فدنا ، ثم استدناه ثانية ، فدنا وقال : ما أرضى رأيحتى للأمير أيده الله .

فقال له : دعوتك لأستشيرك فى أمر أردت أن أفعله ، لعلمى بجودة رأيك ، وصحة فهمك . فقال له : أين الرأى منى اليوم أيها الأمير ، وهذه حالى ؟ فقال له : أنت أوفى رأياً ، وأذكى قلباً ، من أن يختل عليك ما التمسته منك ، أو يعتريك ما يعترى ذوى النقص . فقال : يقول الأمير أيده الله ما شاء ، والله جل اسمه الموفق

فقال له . إن أبا أحمد الموفق قد احتوى على أخيه أمير المؤمنين المعتمد بالله ، ونفذ أمره فى كل ما يريد ، وتمكن من إعنانه بمن ضم إليه أمير المؤمنين من الرجال والجيش الذى استدعاه منه لقتال البصرى . فلما حصل ذلك له صارت له عدةٌ على أمير المؤمنين ، وقد خفت حِنثى فى يمينى التى له فى عنقى إن قعدْت عنه ، وقد عزمت على الخروج إليه بنفسى وجميع جيشى ، حتى أنصر دعوته ، وأنقله إلىّ ، فما ترى ؟ .

فقال : « إن من الخطر العظيم أولا خروج الأمير بنفسه وجميع جيشه وعدته لأن الحرب سجال ، والظفر بحسب التوفيق ، فأخاف أن يلحق الأمير — وأعيذه بالله — هزيمة ، فلا تكون له بعدها قائمة . ولأن يكون الأمير ، أيده الله ، من

وراء من يبعث به إلى هذا الوجه ، وهو مادة له ، أولى من أن ينفذ بنفسه ، وبعد هذا فأرى كلام الأمير كلام من قد لهج من نصرة المعتمد ، وما يريده من رد أمره إليه ، مما لا يراه له المعتمد ، ولا يعتبر به له ، لأنه رجل مشغول بلهوه ، منهمك فى لذاته ، بمعزل عن حسن تدبير ، وأن يكافئ على فعل جميل .

« أرأيت أيها الأمير لو انتقل إليك ، وتمت للأمير حمايته من أخيه ، وأجابك إلى ما دعوته إليه ، أكان له فى قصرك دار يسكنها غير دارك ؟ فأول ما يستعجل الأمير أن ينتقل عن هذه الدار إلى ما لا يقاربها ولا يدانيها ، بل تضيق بمن يحوطه بل لا تسع بعضهم ، ثم يكون الأمير إذا دخلها كبعض الزوار .

« ثم أنت أيها الأمير الآن المتبوع الآمر ، فلا تلبث أن تصير التابع المأمور ، ولعله أن يكون عنده آثرَ الناس مُغَنٍّ أو مُسْله أو نديمٌ ، لا يَعْشُر غلام الأمير وليس له منه منفعة فى أمر ، ولا يحمل عنه شيئاً من ثقل ، ولا يزيد على أن يلهيه ، ويسهل موارد أموره ومصادرها عليه .

« وأقل ما فى هذا الباب الثاني أنه إذا دخل الأمير للسلام يكون قائما ، وذلك النديم أو الملهى جالسا ، لموضعه منه ، ومنبسطا إليه . ولعل هذا إذا شاهده الأمير أخرجه إلى أكثر مما خرج إليه أخوه الموفق فيه ، ثم لا يأمن الأمير أن يسأله بعض غلمانه فى ضيعة من ضياعه ، أو عمل فيه أخص غلمان الأمير ، فلا تمكنه مخالفته فى كل ما يستدعى منه ، ثم اعتراضات حاشيته فى البلد وأصحابه ، وكذلك فى الأعمال ، وطلبهم ما يشق على الأمير ويعظم ، فلا يتهيأ له منعهم ، فإن منع أغضب أمير المؤمنين ، ثم الأمير بعد هذا غير آمن من أن تحمله المحافظة لمن يسأله استنزالك عن موضعك ، فيجيبه ليكافئه على حال قد تقدَّمتْ له عنده إلى محبته ، ولا يخالف إرادته .

« وحسبك أيها الأمير ، أن تستدعى رجـــلا إلى بلدك وملـكك فإذا بلَّغْتَه الغاية القصوى ، وسوغته كل ما كدحت فيه دهرك ، رأى أن ذلك

كله له ومن حاله ، وأن الذى قد بقى معك مما تتجمل به بين يديه ، له دونك ، وأن إبقاءه لك تفضل عليك » .

« إن من إقبال الأمير ما يلحق المعتمد من أخيه ، لأنه يجد بذلك الحجة على خلافه ، وترك الائتمار له ، وإسقاط اسمه والدعوة له ، وتأليب الأولياء عليه ، وفى هذا ما يتهيأ له بلوغه من معونة أمير المؤمنين ، وما يثنى أخاه عليه فيعود له إلى إرادته ، ويزول عنه ما يكرهه ، وما أحب أيها الأمير إظهار هذا الاجتهاد العظيم فى قهر الموفق ، ونصرته لأخيه عليه ، لما يتخوّفُ من مثله ، لقوة يده وكبر أمره وتمكنه .

والذى أرى — ولرأى الأمير ، أيده الله فضله — ألا يفعل ما إذا فعله جرى الأمر فيه بينه وبين أمير المؤمنين على ما شرحته له ، مما يخرُج الأميرُ معه إلى أكثر مما خرج أخوه إليه » .

فقال له أحمد بن طولون : حسبك حسبك ، وأمر برده إلى محبسه .

قال أحمد بن محمد الواسطى لأحمد بن طولون : أيها الأمير أكان جزاء هذا الرجل على هذا الرأى السديد الصحيح ، الذى قال فيه الحق ، ومحض النصيحة ، أن يرد إلى محبسه ؟

قال : نعم ، إنى تأملت أمره ، فوجدته قد نصحنى فى دنياى ، وغشنى فى دينى وآخرتى ، ثم تأملت رأيه وجودته وصحته ، وما حضره منه بغير فكر ولا استعداد وهو على هذه الحال الصعبة القبيحة المفنية للحس ، فضلا عن غيره ، فكيف لو رأى نفسه مطلقة ، وهو نافذ الأمر والنهى ، يأكل طيباً ، ويلبس لينا ، ويشم عطراً ، إذا لاستَدَّ رأيه ، ولبَعُد غوره ، وتمكن من عدوه ، بقوة حيلته وعزم رأيه .

إن أجهل الأمراء من أعطى مقادته للكتاب العقلاء ، لأنهم أسدُّ الناس رأياً ، وأقلهم

ديناً ؛ بل يقبل رأيهم من غير أن يظهر لهم فيه استصابة [١] !

هذه النصيحة التى تفيض بالإخلاص للأمير ، والرغبة فى تثبيت ملكه ، ودوام العز والسيادة له فى بلده ، لم تلق من الشكر ما تستحقه ، ولم يعامل صاحبها بما هو أهل له ، بل فكر الأمير تفكيراً غريباً ، واتخذ من سداد رأى الكاتب وحسن نصيحته ، وتوفيقه فى مشورته وهو فى هذه الشدة والضيق ، سبباً للخوف منه ، فأبى أن يتركه حراً طليقاً ، واتهمه فى نصيحته ؛ وحذر من الكتاب جميعاً .

وهذه القصة تؤيد أيضاً ما تقدم من أن الكاتب لم يكن ناسخاً ، بل كان مستشاراً فى مهام الأمور ، يحتاج إلى ثقافة واسعة ، وعقل ناضج ، وبديهة حاضرة ، وتدبير محمود ، وبصيرة نافذة ؛ مع الصفات الأدبية كالعلم بالأخبار ، ورواية الأشعار ، وحسن الاستشهاد والاقتباس ، وقوة الحجة والبرهان ، وغير ذلك من صفات البيان .

معاداته للأدباء :

اتهم ابن طولون بمعاداته للأدباء ، وعدم تشجيعه للأدب المحض بالرغم من أنه كان أديباً . وقد جاء فى مقدمة « سيرة ابن طولون » للبلوى [٢] أنه كان يُفضِل على النساك والقراء والفقهاء والمحدثين والمتطببين والمهندسين ، يجرى عليهم ما يكفيهم . ولا يعنى كثيراً بالمنجمين والشعراء على ما يظهر ، لبعده عن الاعتقاد بتأثيرات النجوم على أهل الأرض ، ولاتهمه كثيراً مصانعات الشعراء . وقد مدحه البحترى ثم هجاه ، وتوفر محمد بن داود على هجوه عند كل سانحة .

وقد يفهم من سجنه لمحبوب بن رجاء وفعله بالكاتب ابن عمار ، ورأيه فى الكتاب جميعاً — وهو الرأى المدون فى آخر قصة ابن عمار — أنه كان مجافياً

---

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ٢٨١ — ص ٢٨٥

(٢) ص ٢٤

للأدباء ، شديداً على الكتاب ؛ يحذرهم ، ويسيء الظن بالعقلاء الأذكياء منهم .

ولكن هذه حالات فردية ؛ فقد مدحه البحترى طمعاً فى عطائه ، ثم هجاه لما حرمه ، وكان سخطه على محبوب بن رجاء بسبب إفشاء محبوب لأسرار العمل الذى اؤتمن عليه ، إذ كان ينقل إلى العباس بن أحمد بن طولون التقارير التى كانت تأتى عنه إلى أبيه[1] ، أما سر غضبه على ابن عمار فمجهول ، وقد تركه فى الحبس حتى مات .

لكن بقية أحواله تدل على أنه كان يقدر الأدب الراقى ، والبديهة الحاضرة ، وحسن الجواب ، وسديد الرأى . وكان يعجبه فصاحة اللسان ، وجمال العبارة ، مع جميل العذر ، شأنه فى ذلك شأن كل عاقل ، مهذب الذوق . واقرأ القصة الآتية :

أنقذته فصاحته من ابن طولون :

حدث نسيم قال : خرج مولاى ليلة إلى قبة الهواء ، فسمع فى أطراف العافر كلباً ينبح ، فرابه ذلك ؛ فقال للغلمان وهم قيام بين يديه : اركبوا الساعة ، وامضوا ركضاً نحو هذا الكلب ، فانظروا على أى شئ يصيح ، فإن وجدتم أحداً فجيئونى به .

فمضى الغلمان نحو صوت الكلب حتى أدركوه ، فوجدوا رجلا قد كان عند صديق له من جيرانه ، وقد انصرف من عنده يريد منزله ، فوجد بابه مغلقاً ، وهو قائم عليه يدق ، وقد منع أهلَه غلبةُ النوم عن أن يسمعوا دقه . وكلما دق الرجل ينبح الكلب عليه ، فأخذوه ، وأردفه أحدهم خلفه ، وأقبلوا به ركضاً ، فلما رأى الرجل ما حل به طار النبيذ من رأسه ، وأقبل يستعين بالله ، فلما أوقفوه بين يديه كاد عقله يذهب ، حتى ثبته الله عز وجل ، فعرفه الغلمان صورة الأمر ، فقال له

---

(١) ص ٢٤٧

أحمد بن طولون : ما الذى حملك على الخروج فى مثل هذا الوقت ؟ فقال له : أنا أحدث عنه الأمير أيده الله : كنت عند صديق لى من جيرتى ، وتمادى بنا الحديث إلى هذا الوقت ، وكنا نستعمل الحذر والتحفظ قبل أيام الأمير ، أيده الله ؛ فلما ولينا ، واشتدت وطأته على أهل الدعارة والفساد انقمعوا[1] من هيبته ، وخافوا من سطوته ، فأمنا لذلك وصرنا نخرج فى مثل هذا الوقت ، وقبله وبعده آمنين ، ببركة الأمير أيده الله .

فاستحيا منه أحمد بن طولون لحسن عبارته وبيان قوله ، وتوقف عما كان قد عزم عليه من التأديب له فى الخروج فى مثل هذا الوقت . وقال له : قد كنا على تأديبك على مخاطرتك بنفسك فى مثل هذا الوقت ، فأزال ذلك عنا جميل عذرك ، وحسن عبارتك عن نفسك ، وفصاحة لسانك ، وعلمنا أن ذلك لا يكون إلا فى عاقل ، وكفى بالعقل واعظاً . وقد جعلت العِوَضَ من ذلك سرعةَ ردك إلى منزلك ، فلست أشك بأن أهلك لما علموا بأخذنا لك قد قلقوا لذلك .

ثم قال لبعض الغلمان : أردفه خلفك ورده إلى منزله ،وقام هو فأخذ مضجعه وقد مضى أكثر الليل .

أعرابية أبت أن يكون ابنها جاسوسا :

وهذه قصة أخرى تدل على ميله إلى مجالس الفصحاء ، وإعجابه بحسن قولهم تفسيراً لوجهة نظرهم :

دخلت أم عقبة الأعرابية يوماً إلى أحمد بن طولون ومعها ابنها عقبة ، وكان

(١) قمعه : ضربه بالمقمعة وهى خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ، والجمع مقامع وقمعه كمنعه ضربه بها وقهره ، وذله ، كاقمعه ، وانقمعوا ذلوا وقهروا.

كثيراً ما يأنس بها ويحب محادثتها لفصاحتها ، وحسن كلامها ، وكان يكثر برها في كل وقت ، فسألته التقدم في تصريف ابنها فيما يعود عليه نفعه ، فقال لابن مهاجر وهو بين يديه : انظر له في شغل يعود عليه فيه خير يبين عليه ، وكان البريد إليه ، فقلده ابن مهاجر بريد ناحية من النواحي ، وأجرى عليه من الرزق عشرة دنانير في كل شهر ، فحدث ابن مهاجر قال : إني لقاعد بين يدي أحمد بن طولون بعد ثلاث ، حتى دخلت أم عقبة على الأمير فقالت : أنا شاكرة للأمير أيده الله ، ذامة لهذا الرجل ، تريدني ، فقال لها : ولم ذاك ؟ فقالت : أمرته في إشغال ولدي فيما يعود عليه نفعه فشغله فيما لا يُرْحَض عن رءوسنا عاره وشناره ، والجوع الكريم أنفع من الشبع اللئيم ، فقال لها : وما ذاك ؟ قالت : وكله بالنميمة يحصيها على المسترسل ، ويهتك بها المستتر ، فقد تحاماه الناس وتناذروه ؛ فإذا لم يكن غير هذا تركته ، ولم أتعرض لما فيه مقت الله عز وجل وسب عباده . فضحك أحمد بن طولون ، وأمرني أن أجري العشرة دنانير في كل شهر ، وأعفيه من البريد ففعلتُ ، فشكرَت ودَعَت وقالت : هذا الأشبه بك أيها الأمير وانصرفت[1] .

وورد في كتاب ابن الداية قبل هذه القصة ما يأتي : وحدثني نسيم قال : تظلمت عجوز أعرابية تعرف بأم عقيل ، إلى أحمد بن طولون من تسخير أجمال لها ، وكانت فصيحة اللسان ، حسنة البيان ، فتقدم برد أجمالها وأمر بعض الحجاب أن يلحقه بها إلى داره ، فوافقت ، فتقدم في إطعامها ، وأن يخلع عليها أثواب ضخام .

وكان في دولة ابن طولون فصحاء ينهضون بعبء الوفادة ، ويحسنون تحمل الرسالة ، ويزينون أقوالهم بوضوح برهانهم ، ويفتنون سامعيهم بعذب كلامهم ، ويرهبون عدوهم بقوة بيانهم . وكان يتخيرهم ، ويستعين بهم في مهمات أموره ، وإليك خبر وفادة من هذه الوفادات .

---

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ٢٠٨

ثار العباس بن أحمد بن طولون على أبيه ، وأعانه على ذلك طائفة من قواد أبيه وكتابه . فمن القواد على بن ماجور ، وعبد الله بن طغيا ، وأحمد بن صالح الرشيدى وأحمد بن القاسم بن أسلم ، وجعفر بن حُدار الكاتب ، وكل هؤلاء كان لأحمد بن طولون عنده النعمة الجزيلة ، والإحسان التام ، والأشياء الخطيرة ، إلا أن الحاسد لا دواء له ، ولا يقنعه إلا أن يأتى على نفس من يحسده[١] .

ومنهم طائفة أخرى مذهبهم النحو والغريب ، وعلم النجوم ، والشعر وما يجرى مجراه . وانضاف إليهم جعفر بن عبد الله ، وأحمد بن المؤمل المعروف بأبى معشر ، ومحمد بن أزهر المعروف بالمنتوف . وكل هؤلاء حسنوا له التغلب على مصر والفتك بأحمد بن محمد الواسطى . فسار إلى إفريقية ، وعاد أبوه من الشام فأرسل إليه وفداً على رأسه القاضى بكار بن قتيبة[٢] وفيهم زياد المعدنى مولى أشهب . وكان فصيح اللسان ، حسن العبارة ، قوى الفهم ، وأمرهم بملاينته وملاطفته ووعده فى كتابه الصفح عما جناه ، وألا يسوءه بمكروه ، وحلف له على ذلك بأيمان ، مغلظة .

فلما وصلوا إليه رحب بهم ، وأكرمهم ، ورفع مجلسهم . فابتدأ زياد المعدنى فقال : يا سيدى . سيدُنا الأمير أيده الله ، يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : يا أقرب الناس إلىّ ، وأبرهم لدىّ ، وأعزهم علىّ ، خفرت ظنى بك أقوى ما كان أملى فيك ، وأرجى ما كنت لك . عن غير إساءة كانت منى إليك ، ولا خطيئة ركبتها فيك . ولم تَرْع حسن تربيتى لك ، واعظم إشفاق عليك . وأنى رشحتك لمنزلتى . وقدرت بك حياة ذِكرى ، وصيانة شملى ؛ فأرضيت عدوى ، وأسخطت ولىي . أيا سبحان الله ! أما تخاف العقوبة فى العقوق — وقانيها الله جل اسمه

---

(١) ص ٢٤٥ سيرة ابن طولون .

(٢) ص ٢٤٩ سيرة ابن طولون .

فيك ؛ وثمرة المجازاة على الإساءة — صرفها الله بكرمه عنك ؛ فإن رجعت إلىّ . فكأنك لم تذنب . وإن تمادى بك الاغترار شخصت إليك بنفسى . ولم أكن بأول من خسر سعيه . وأخلف تقديره » . وبكى زياد وبكى معه من حضر ؛ فتدمع العباس وبلغ قوله من قلبه .

ولكن ابن حدار حذره أباه ، وخوفه ما قد يصيبهم جميعاً . وكان أبوه قد كتب إليه كتاباً مع الوفد يستلينه ويعده . ولكن ابن حدار أنشأ للعباس كتاباً يرد به على أبيه . وفيه شرائط مجحفة . واستمرت بينهما المكاتبات طويلا .

وكان مما أغاظ أحمد بن طولون من مكاتبات ابنه العباس إليه حتى استخفه إلى الخروج بنفسه ؛ قوله فى كتابه ، من إنشاء جعفر بن حدار[1] :

إلى الأمير أبى العباس أحمد بن طولون ، مولى أمير المؤمنين ، من عبد الله مولى الله ، المتمسك بمناجى طاعة الله ، المنحرف عن زيغ ظُلَم المعصية ، إلى وضوح سر البصيرة ، القابل من الله موعظته ، والعامل بما أمر به . إذ يقول جل ثناؤه . « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا معَ الصادقين » . وقوله عز وجل : « فلا تُطِعْ مَنْ أغفَلْنا قلبَه عن ذِكْرِنا واتَّبَعَ هَوَاه » .

سلام على الأمير ، وعلى من استرجع وادّكر ، وفكر وازدجر . فأنا أحمد إلى الأمير الله لا إله إلا هو ، العاطف بى إلى أرفع سُنن الهداية ، والعادل بى عن ظُلَم سَنن الجهالة ، وأسأله صلاة تامة يخص بها وليَّه ، وخيرَته من صفوته ، ورسولَه صلى الله عليه وسلم .

أما بعد ، وفق الله الأمير لمحالّ رشده ، وجنبه مقابح أمره ، وسخر له الخلق عن غامض ذكره ، فإن كتاب الأمير ورد عن الحائِدِ منه ، عن سبيل العظة والتذكير ، إلى سبيل التهديد والتحذير ، فبعّد وقرب ، وآنس وهدد ، وجمع

---

(١) ص ٢٥٦ سيرة ابن طولون .

وفرّع . يبذل من نفسه باليسير فيها . ويدعو إلى الصلة ويحدث غيرها . ويعرض من ماله الأنفس . ويُصير من خطابه الأنزر ، ويعدد من واجب حقه ، ولازم مفترضه ، . ما اعترف به مصدّقاً ، لمن اعترف بالطاعة محققاً . . ألخ » .

وأخذ يجادل أباه فى تبرير خروجه عليه بأسلوب أفصح . وبحجج قوية من المعقول والمنقول ؛ ويرد على ما جاء فى كتاب أبيه مفنداً ومعترضاً ، حتى لتخاله من إنشاء كتاب العراق[1] .

فلما ورد كتابه أغاظه ، وبلغ منه ، وأجابه يقول :

« إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، المُثلِم لدينه ، البخوس من حظ دنياه وآخرته : سلامٌ على كل منيب ، مستجيب من قريب .

أما بعد : فإن مثلك مثل البقرة ، تثير المدية بقرنها ، والنملة ، يكون حتفها فى جناحها ، وستعلم — هَبِلَتْكَ الهوابل ، أيها الأخرق الجاهل ، الذى ثنى عن الحق عِطفَه ، واغتر بضجيج المواكب خلفه — أىَّ مورد هلكةٍ سلكت ، إذ على الله ، جل اسمه تمردت ، فإنه تعالى قد ضرب لك (مثلا قريةً كانت آمِنة مطمئنة ، يأتيها رزقُها رغَداً من كل مكان ، فكفرت بأنعُم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ، واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلك ، والمكروه قد أحاط بك ، والعساكر قد أتتك كالسيل فى الليل ، تؤذنك بحرب وويل ، فإنى لأقسم ، وأرجو ألا أجور وأظلم ، ألا أثنى عنك عناناً ، ولا أوثر على شأنك شانا ، فلا تَتَوَقَّلْ[2] ذروة ، أو تَلِجُ بطن واد ، إلا تبعتك وطلبتك ، حيث يمت

---

(١) رد أبوه عليه كتاباً مطولا شديداً نقله صبح الأعشى بتمامه جـ ٧ ص ٥

ويقول القلقشندى : إن الكتاب من إنشاء ابن عبد كان . ولا يقل فى قوته الأدبية والمنطقية عما تقدم . وهنا صورته عن « سيرة ابن طولون » للبلوى ص ٢٦٠ وهى أقصر من رواية صبح الأعشى ، وتخالفها بعض المخالفة.

(٢) تصعد قمة .

وسلكت ؛ حتى تستمر من عيشك ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت ، حتى لا دافع ، بعون الله ، يدفع عنك ، فتعرف من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هلكت ، ولم تأت بما إليه عجلت ، ولا رأى من أطاف بك من الغواة قبلت . فحينئذ يتفرى[1] لك الليل عن صبحه ، ويسفر لك الحق عن نصحه ، فتنظر بعين لا غشاوة عليها ، وتسمع بأذن لا وقر فيها ، وتعلم أنك كنت مستمسكا بحبل غرور متمادياً ، وسالكا سبيل ضلال لا تجد له هادياً ، من عقوق لا ينام طالبه ، وبغى لا يفوت هاربه ، وتقف على سوء رويّتك ، وعظيم جريرتك ، فى تركك قبول الأمان وهو لك مبذول ، وأنت عليه محمود ، واليد عنك كافّة والسيف عنك مغمود ، فتتلهف ، واللهف غير نافعك ، إلا أن تكون أجبت إليه سريعاً ، وأقبلت نحوه هرعاً .

واعلم أنك لا تقصد موضعاً إلا تَلَوْتك ، ولا تأتى بلداً إلا قَفَوْتك ، ولا تلوذ بعاصم لينجيك ، إلا استعنت بالله عليه وعليك ؛ فما يجيرك إلا أحد رجلين ، إما لدينٍ أو لدنيا ، فأما الدين فأنت بحكمه مفارق ، لأنك عاقٌّ مُشاقق ، وأما الدنيا فما أحسبه بقى معك من حطام ما سرقته ، مما حملت نفسك على الاستبداد به ، ما يفى بمكاثرتنا ، مع ما وهبه الله ، جل اسمه ، لنا من جليل نعمه التى نستوزعه[2] الشكر عليها ، ونرغب إليه فى إدامتها .

وما دعاني إلى إرفاقك ، والتسهيل من خناقك ، طول هذه المدة ، إلا أمور : منها استضعاف أمرك واحتقاره ، وقلة الاحتفال به واستصغاره ، ومنها أنا جعلنا تركك على ما اخترته ، عقوبة لك من إباقك إلى أقصى البلاد ، مبعداً عن الوطن والأهل ، والراحة والمهاد ، وقد فارقت بلدك ، وحرمت أهلك وولدك ؛ ومنها أنا

---

(١) ينشق .

(٢) نطلب منه التوفيق .

علمنا يقيناً أن الوحشة دعتك إلى الانحياز حيث انحزت ، فأمهلناك ليسكن نفارُك وقلنا إنك تحن إلينا حنين الولد ذى الحسب ، وتتوق إلينا توقان ذى الرحم والنسب فلم تسمع من واعظ ، ولم تعتد بمحافظ ، وأما الآن ، وقد اضطررنا إلى الانزعاج نحوك ، لاستعمالك المواربة والمخادعة فيما يجرى عليه تدبيرك ، فما أنت بموضع للصيانة بل حقيق باللعنة والإهانة ، فعليك من ولد عاقٍّ لعنةُ الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين ، لا قَبِل الله لك صرفا ولا عدلا[1] ، وأحاط بك حيث كنت ، ولا حاطك حيث توجهت ، وستعلم ، أيها المخالف القاطع رحمه ، العاصى ربه ، أىَّ جناية على نفسك جنيت ، وأى كبيرة أتيت ، فتندم إن كانت لك روية ، وفيك فضل إنسانية ، وتود أنك لم تكن ولدت ، ولا فى الخلق عرفت ، إلا أن ترجع راغباً ، وتسرع خاضعاً ، إلى ما قبلنا ، فنقيم الاستغفار لك مقام اللعن ، والرقة مقام الغلظة والوهن ، والسلام على من سمع الوعظ فوعاه ، وذكّر بالله فاتقاه » .

وظفر ابن طولون بابنه العباس وجماعته ، فأهانهم وعذبهم ، وقتل كثيراً منهم ومنهم ابن حدار الكاتب . وكان غيظه عليه أشد ، وحنقه عليه أعظم ، لأن كتب العباس إلى أبيه كانت من إنشاء هذا الكاتب .

وإذا قرأت كتاب ابن طولون الذى أرسله إلى ابنه العباس ، وكاتبه ابن عبدكان ؛ لم تجد أيضاً فرقاً بينه وبين رسائل العراقيين ، فى صورته البيانية ، ذات الفقرات القصيرة ، والعبارات الموسيقية ؛ المؤتلفة النغم ، والسجع غير المتكلف ، وفيها خضوع اللفظ للمعنى ، والميل إلى الإسهاب إذا اقتضى المقام إسهابا ؛ وقد يسوق الدعاء حشواً واعتراضاً فى أثناء الكتابة ، كما كان الجاحظ يفعل .

ولا غرابة فى تشابه الكتاب ؛ فإن بغداد كانت المثال الذى يحتذى ، والرحلة بين الأقطار الإسلامية كانت شائعة ، وانتقال الأدب من مصرٍ إلى مصر ، ومن

---

(١) الصرف : التوبة ، والعدل الفدية.

حاضرة إلى حاضرة ، كان أمراً عاماً . وقل أن تجد كاتباً كالجاحظ وابن العميد يستقل بأسلوب وينفرد بطريقة. واقرأ مقدمة كتاب المكافأة ، تجد دعاء جاحظياً ، قصر صاحبه عن أن يسترسل استرسال الجاحظ ، ويتدفق مثله .

ولا ننسى هنا أن نعيد ما قلناه عن أحمد بن يوسف بن الداية ، فإن استقلاله وظهور شخصيته فى كتاب المكافأة أمر يستحق الالتفات إليه ، ومن حسن الحظ أن له آثاراً باقية . أما ابن عبدكان فلا يمكن الحكم عليه من عدد قليل من الرسائل؛ وكذلك ابن جدار ، وابن نصير العبادى ، وأحمد بن أيمن الخ . ولوقدرلنا الاطلاع على رسائلهم وآثارهم الأدبية كاملة أوعلى كثير منها لاستطعنا أن نعرف خصائصهم الكتابية ، ونميز كاتباً عن كاتب كما ميزهم ابن طولون عندما كانت ترد عليه كتب ابنه العباس وهوثائرعليه ، وأدرك أسلوب كل كاتب، ورد إليه عباراته.

وما دمنا بصدد الكلام عن الصفات الشائعة فى الرسائل فنتم القول ببعض عبارات كانوا يبتدئون بها رسائلهم ويختمونها . فقد روى صبح الأعشى[1] أن ابن عبدكان كان يفتتح ما يكتبه عن ابن طولون فى الولايات بلفظ : « إن أحق كذا » أو « إن أولى كذا » وما أشبه ذلك . ومن ذلك ابتداؤه فى نسخة عهد عن ابن طولون بقضاء برقة .

« إن من أحق من آثَرَ الحق وعمل به ، وراقبَ الله فى سر أمره وجهره ، واحترس من الزَّيْغ والزلل فى قوله وفعله ، وعمل لمعاده ورجعته ، إلى دار فاقته ، وفقره ومسكنته ، مَنْ جُعِلَ بين المسلمين حاكما ، وفى أمورهم ناظراً » .

وكانوا يبتدئون الإخوانيات — مما جرى عليه ابن عبدكان وغيره — بالدعاء وعليه غالب كتابتهم ، فكانوا يدعون بطول البقاء كقول ابن عبدكان :

---

(١) ج ١١ ص ٢٩ . وجاء فى صبح الأعشى ج ٨ من ص ١٦٠ — ص ١٦٦ كثير من الأمثلة والعبارات التى كانت طابع الرسائل فى ذلك الوقت .

« عمر الله بك الأزمنة والدهور ، وآنس ببقائك الأيام والشهور ، وأمتع بدوام عزك ، السعداءَ بحظهم منك » .

وقد يكون الدعاء « بدوام النعمة » أو بـ « جعلت فداك » . وقد يتركون الدعاء بهذين إعظاماً لقدر المكتوب إليه . وتلك مبالغة وتكلف فى قلب المعانى كقول ابن عبدكان :

« إن قلت فى كتبى « جعلنى الله فداك » أكون قد بخستك حظ إحسانك إلى ، وحق مُفترَضك على ؛ لأن نفسى لا توازى ساعة من يومك ، ولا تساوى طرفة من دهرك ، وإنما يُفدَّى مثلُك بالأنفس التى هى أنفس من الدنيا ، وأعرض من أقطار الأرض » .

وقد يدعون بصلاح الدنيا ، وغبطة الآخرة ، وكبت العدو ، وطيب الحياة ، وكل ما يمكن أن يدعى به ، مع مراعاة المناسبة بين الدعاء والمدعوله ووقت الدعاء.

وكانوا يفتتحون كتبهم بقولهم : « كتابى إليك » ، أو « أنا من جملة صنائعك » أو شبه ذلك .

وكانوا يجيبون على الرسائل مبتدئين بما يفيد وصولها ، ويعقبون بالثناء عليها وعلى مرسلها ، والدعاء له بمثل ما تقدم ، ومن ذلك كتاب ابن عبدكان :

« وصل كتابك مشتملا من أنواع البر ، على ما يقصر فى جنب أيسره أعظم الشكر .

ويختمون الرسائل بالأدب المتكلف ، والتلطف المبالغ فيه ، مما توجبه الحضارة ويفرضه اختلاف منازل الناس وأقدارهم فيها .

وصار بعضهم مقصد الأدباء . فقد روى أن أحدهم ذهب إلى ابن عبدكان فحجبه فكتب إليه :

إنى أتيتك للتسليم أمسِ ، فلم تأذَنْ عليك لىَ الأستارُ والحُجُب

وقد علمتَ بأنى لم أُرَد ، ولا والله ما رُدَّ إلا العلمُ والأدبُ

فأجابه ابن عبدكان مضمناً بيت أبى تمام فى عتاب عبد الله بن طاهر :

لو كنتَ كافيتَ بالحسنى لقلتَ كما قال ابن أوسٍ ، وفيما قاله أدب

« ليس الحجابُ بمُقصٍ عنك لى أملا إن السماءَ تُرَجَّى حين تَحْتَجِبُ »

وكان ابن عبدكان يعرف أقدار أهل الأدب ويستعين بالفضلاء منهم . وكانت شهرته ذائعة فى العراق ، فقصده من هناك أديب صار له ذكر فى عهد خمارويه وهو : اسحق بن نصير الكاتب البغدادى أبو يعقوب .

وقد ترجم له ياقوت فى معجم الأدباء [1] فقال :

« كاتب الرسائل بديوان مصر بعد محمد بن عبد الله بن عبدكان »

وجاء ياقوت بخبر اتصاله بابن عبدكان ، نقلا عن ابن زولاق . فقال :

« وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبدكان ، على المكاتبات والرسائل ، منذ أيام أحمد بن طولون ، إلى أن قدم عليه أبو يعقوب ، اسحق بن نصير البغدادى من العراق ، والتمس التصرف ؛ فقال له ابن عبدكان : فيما ذا تتصرف ؟ فقال : فى المكاتبات والأجوبة والترسل .

وكان بين يدى أبى جعفر كتب قد وردت ، فقال له : خذهذه وأجب عنها ، فأخذها ومضى إلى ناحية من الدار ، فأجاب عنها ، ثم وضع خفه تحت رأسه ونام . وقام أبوجعفر إلى الحجرة التى له ، فاجتاز به والكتب بين يديه ، فأخذها وقرأها ، فلما تأملها جعل يُرَوِّحُ اسحق بن نصير حتى انتبه » .

ثم أجرى عليه أربعين ديناراً فى كل شهر ، وظل معه إلى أن مات ابن عبد كان .

---

(١) ج ٦ ص ٨٥ .

ولما انفرد على بن أحمد الماذرائى بالكتابة ألزم اسحق بن نصير منزله . ووردت كتب فأجاب عنها على بن أحمد ، وعرضها على مولاه خمارويه فأنكرها ، فأعاد كتابتها ، فأنكرها خمارويه أيضاً ، فاضطر إلى استدعاء اسحق بن نصير فأجاب عن الكتب ، ودخل « على بن أحمد » على خمارويه فقرأ الأجوبة ، فقال : نعم ، هذا الذى أعرف ! « إيش الخبر ؟ » فقال له : كاتب كان مع أبى جعفر فاعتزل ، وأحضرته الساعة . فاستدعاه خمارويه وأمر على بن أحمد أن يجعل رزقه أربعمائة دينار فى الشهر .

وقال لإسحق بن نصير : « لا تفارق حضرتى . فبلغ اسحقُ حتى صار رزقه ألف دينار فى كل شهر . فكان يجود بذلك ، ويفضل به على الناس » .

ولقد أرسل إلى بغداد ثلاثة آلاف دينار دفعة واحدة ، ألف منها لأبى العباس المبرد ، ومثلها إلى أبى العباس ثعلب ، والألف الثالثة إلى وراق كان يجلس عنده .

وقد توفى اسحق سنة ٢٩٧ .

وترى فى أخبار إسحق هذه أن خمارويه كان كأبيه ، يعرف الفرق بين كاتب وكاتب ، وبين أسلوب وأسلوب ، وأنه كان يقدر الأدباء ، ويجزل عطاءهم . وأن الصلة بين كتاب مصر والعراق لم تكن منقطعة .

أما الماذرائى فهو من أسرة ولى بعض رجالها كتابة الطولونيين وتدبير أموالهم ومنهم محمد بن على الماذرائى ، وعمه الحسين بن أحمد . وكان لهم عمل بها بعد الطولونيين أيضاً[1] .

وكانت ظروف الحرب والسياسية والحوادث التى توالت على البلاد فى أيام خمارويه وبعده إلى قيام الفاطميين ، ظروفاً تنهض فيها الكتابة بكثير من الأعباء ، كرسائل الصلح ، وكتب العهود ، وأجوبة الولاء والطاعة ، وصحائف التهديد

---

(١) الولاة والقضاء ص ٢٦٩ ، ص ٢٧٥

والتحذير ، وغير ذلك من كل ما تحتاج إليه الدولة فى صلتها بدار الخلافة ورجالها ، أو تحتاج إليه فى صلتها بالدويلات التى كانت تابعة لها أو مجاورة ، كالشام وإفريقية والحجاز .

وكانت مصر قد أنشأت ديوان الرسائل ، واختارت له كتاباً قاموا بأعمالهم فيه على درجة من البلاغة والمهارة والحذق ، لا تقل عما كان فى حاضرة الخلافة ؛ ولكن الباقى من آثار أولئك القوم هو أسماؤهم ، وإشارات إلى كتبهم ؛ لا تغنى كثيراً عن تلك الآثار .

وإذا جاز لنا أن نحكم بما بقى ، قلنا إن كتاب مصر فى هذا العصر كانوا يسيرون على طريق النثر الفنى فى القرن الرابع ، من عناية بالمحسنات البديعة كالسجع والجناس ، والاقتباس من القرآن الكريم ، والاستشهاد به ، وحل أبيات الشعر ثم العناية بترتيب المعانى وتنظيم الفقرات ، وكثرة الدعاء والألقاب ، وتمييز الطبقات فى الكتب . وزيادة أنواع البدء والختام عما كان متبعاً من قبل . مع التنقل بين الإيجاز والإطناب بحسب الموضوع ، أو جهة الإنشاء الصادرة عنها أو الواردة إليها .

ومن الرسائل الباقية من عهد الإخشيديين رسالة بعث بها الإخشيد ، محمد بن طغج ، صاحب الديار المصرية ، وما معها من البلاد الشامية ، والأعمال الحجازية ، إلى أرمانوس ملك الروم ، رداً على كتاب منه إليه ، نستطيع أن نعرف فحواه من كتاب الإخشيد فى الرد عليه . ويخيل إليك وأنت تقرأ رد الإخشيد أن الكاتب كان يرد على كتاب أرمانوس فقرة فقرة ، بشىء من التطويل والإسهاب ، وجاء فى كتاب أرمانوس فقرة تشير إلى أنه كاتَبَ الإخشيد وهو وال للخليفة ، ولم تكن عادته أن يكاتب إلا الخليفة نفسه .

ومما يدل على غنى ديوان الرسائل بالكتاب أن الإخشيد أمر بالرد على

كتاب أرمانوس، فكتب له الكُتَّاب عدة أجوبة ، ورفعوا نسخها إليه ؛ فلم يرتض منها إلا ما كتبه ابراهيم بن عبد الله النُّجَيْرِمِي — وكان عالماً بوجوه الكتابة ، وهو كتاب مطول فى صفحات ، وكثير من عباراته مكرر . وقد بدأه :

« من محمد بن طغج ، مولى أمير المؤمنين ، إلى أرمانوس عظيم الروم ومن يليه :

« سلامٌ بقدرما أنتم له مستحقون ، فإنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

أما بعد . فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا واسحق رسوليك ، فوجدناه مفتتحاً بذكر فضيلة الرحمة ، وما نُمِى عنا إليك ، وصح من شيمنا فيها لديك ، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة فى رعايانا ، وما وصلت به هذا القول ، من ذكر الفداء ، والتوصل إلى تخليص الأسرى ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه .

فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة ؛ فمن سديد القول ، الذى يليق بذوى الفضل والنبل ، ونحن — بحمد الله ونعمه علينا — بذلك عارفون ، وإليه راغبون وعليه باعثون ، وفيه — بتوفيق الله إيانا — مجتهدون ، وبه متواصون وعاملون ، وإياه نسأل التوفيق لمراشد الأمور ، وجوامع المصالح ، بمنه وقدرته .

وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة ، فإنا نرغب إلى الله جل وعلا ، الذى تفرد بكمال هذه الفضيلة ، ووهبها لأوليائه ثم أثابهم عليها ، أن يوفقنا لها ويجعلنا من أهلها ، وييسرنا للاجتهاد فيها ، والاعتصام من زيغ الهوى عنها ، وعُرَّة القسوة بها ، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفا على طاعته ، وموجبات مرضاته ، حتى نكون أهلا لما وصفتنا به ، وأحق حقاً بما دعوتنا إليه ، وممن يستحق الزلفى من الله تعالى ، فإنا فقراء إلى رحمته ، وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا وحمله من جسيم الأمر ما حملنا ، وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا ، بمولانا امير

المؤمنين — أطال الله بقاءه — أن يبتهل إلى الله تعالى فى معونته لذلك ، وتوفيقه وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده « ومن لم يجعلِ اللهُ له نوراً فما له من نور » .

وترى فى هذه الفقرات التى تقدمت ، سلاماً فيه حذر ، وحمداً لله ، وصلاة على رسوله ، وإجمالا لخطاب أرمانوس ، ورداً مفصلا عليه بعد ذلك ، وترى فيه الاعتراض بين أجزاء الجملة ، وتقسيم الجملة الواحدة إلى أجزاء ، وإطنابا عاما . وتحس فى كثير من الفقرات أن الرسالة قد انتهت ، لأنه كان يختمها بعبارات تشبه عبارات الختام ، ويتكرر ذلك أكثر من مرة فى الرسالة . وآخر ما قاله :

« ومن ابتدأ بجميل لزمه الجرى عليه والزيادة ، ولا سيما إذا كان من أهله وخليقاً به ، وقد ابتدأتنا بالمؤانسة والمباسطة ، وأنت حقيق بعمارة ما بيننا ، وباعتمادنا بحوائجك وعوارضك قبلنا ، فأبشر بتيسير ذلك إن شاء الله تعالى » .

« والحمد لله أحق ما ابتدئ به وختم بذكره ، وصلى الله على محمد نبى الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلم تسليما » .

والنجيرمى منشئ هذا الكتاب نحوى لغوى ، أخذ عنه أبو الحسين المهلبى ، وجُنَادة اللغوى الهروى ، وكثير من أهل العلم ، وكان مقامه بمصر[1] . أما نسبه فإلى « نجيرم » وهى قرية كبيرة على ساحل بحر فارس . وكان يقول الشعر أيضاً . وقد امتد به العمر إلى زمن كافور . ورويت له نادرة فى الشعر تدل على حضور بديهته ، وحسن تأويله ولباقته ، وبخاصة فيما اتصل بالنحو الذى كان بعض صناعته . روى ياقوت قال : [2] .

« حدثنى بعض أهل مصر عند كونى بها فى سنة اثنتى عشرة وستمائة ... أن الفضل بن عباس دخل على كافور الإخشيدى فقال له : أدام الله أيامِ سيدنا الأستاذ

---

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ١٩٨

(٢) ج ١ ص ١٩٩

تخفض الأيام ، فتبسم كافور إلى أبى اسحق النجيرمى . فقال أبو اسحق .

لا غَرْوَ أَن لَحَنَ الداعى لسيدنا ... وَغصَّ من هيبةٍ بالريق والبَهَرِ

فمثلُ سيدنا حَالَتْ مهابته ... بين البليغ وبين القول ، بالحَصَر

فإن يكن خَفَضَ الأيامَ عن دَهَشٍ ... من شدة الخوف لا من قلة البصر

فقد تفاءَلْتُ فى هذا لسيدنا ... والفألُ نأثره عن سيد البشر

بأن أيامه خفض بلا نَصَب ... وأن دولتَه صفو بلا كدر

قال : فأمر له بثلاثمائة دينار ، ولابن عباس صاحب الغلط بمثلها .

هكذا أخبرنى المصرى فى خبر هذا الشعر . وأنه لأبى اسحق النجيرمى » .

وهناك رواية أخرى فى هذا الشعر وفى قائله ، وإن اتفقت الروايتان على أن الخطأ والشعر كانا فى مجلس كافور .

وقد سمعنا برسائل أرسلها كافور الإخشيد إلى عامله على دمشق كى يرسل إليه المتنبى ، فكتب إليه عامله إن المتنبى قال : لم أقصد العبد ، إن دخلت مصر فما قصدى إلا سيده [1] .

وكتب يطلبه من أمير الرملة أيضاً .

ولهذه الرسائل قيمتها فى الدلالة على حرص كافور على الأدب وعلى المتنبى خاصة .

---

(١) الصبح المنبى ، على هامش العكبرى ص ١٠٩ — ١١٠